العالم فى خطر دائم من مكر اليهود وعرقيتهم التى تتيح لهم اتخاذ أى أسلوب مهما كان دنيئا لوقف كل مايهدد مصالحهم ووجودهم حتى لوكان هذا الأسلوب القتل والغيلة، وهذا يفسر لنا تحذير بحيرا الراهب [١] لأبى طالب :

"إرجع بابن أخيك إلى بلدك واحذر عليه يهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ماعرفت ليبغنه شرا، فإنه كائن لابن أخيك شأن عظيم" [٢].

ويرجع بعض الدارسين أن اليهود بعد أن تيقنوا من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم أخذوا يكيدون له عن طريق الوفود السرية التى كانت بينهم وبين قريش والتى ظهرت آثارها عند كعب بن الأشرف فيما بعد.

فمن ذلك مثلا : أن قريشا أرسلت النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود يسألونهم عن محمد وخبره باعتبارهم أهل كتاب يعلمون مالاتعلم قريش، فقالت لهم أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو بنى مرسل، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فروا فيه رأيكم، وكانت الأسئلة الثلاثة :

١ - عن أهل الكهف.

٢ - عن ذى القرنين.

٣ - عن الروح [٣].

١-مسيحى من أصل الشام كان قسا عالما فلكيا واسمه فى السريانية يعنى النبحر فى العلم، وكان على مذهب أريوس ونسطور الذى ينكر ألوهية المسيح وأمه، وكانت له صومعة فى «بصرى» بالشام على الطريق بين مكة والشام وكان يدعو إلى التوحيد، وقد مرت به قافلة قريش وفيها محمد قبل البعثة فعرف من علاماته أنه النبى المنتظر.

٢-أنظر خاتم النبيين ص ٤٦٦ مرجع سابق.

٣- دراسة فى السيرة د/عماد الدين خليل ص ٣٢٤.

ثالثا : الترقب والمعاهدة : إلا أن محاولات الوثنية واليهود قد أخفقت ونجح رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة إلى المدينة، وإقامة دولة الإسلام بها، وظل اليهود يراقبون الصراع بين الوثنية والإسلام ليخططوا على ضوء نتائجه مايضر بالإسلام ويسدد الضربات إلى ثغراته ومواطن ضعفه، ولذلك وافقوا على كتاب النبى صلى الله عليه وسلم ومعاهدته ليستريحوا لأنفسهم فترة من الوقت يستردون فيها أنفاسهم إزاء السرعة التى كانت تتحرك بها الأحداث الإسلامية [١].

رابعا : الجدل والعناد : ظل اليهود بعد المعاهدة هادئين يؤملون فى أثناء ذلك أن يقر الرسول صلى الله عليه وسلم بأرجحية العقيدة التى يدينون بها، ويظنون أنهم يتمكنون يوما من استمالته إلى دينهم وإدخاله هو وأصحابه فيه، غير أن ظنهم قد خاب عندما أدركوا أن محمدا ليس مجرد زعيم يحترف السياسة، وإنما هو نبى صاحب رسالة عظمى يحملها للعالمين، ولذلك فهو الذى يدعوهم للدخول فى دينه لاهم، فلما كفروا به بدأ القرآن الكريم يفضح ماضيهم وحاضرهم ويكشف سوءاتهم، وكان الإسلام يتزايد انتشارا وأتباعا، ويتزايد أتباعه وحدة وتماسكا، لذلك أدرك اليهود أن الإسلام هو الخطر الذى يهددهم فقامت بينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم محاجات ومجادلات ماليث أن اتخذت من جانبهم موقف التحدى - والتعنت .. والعناد .. وإن كانت قد أدت بالمعتدلين منهم إلى الإسلام، فقد روى البخارى عن أنس رضى الله عنه أن عبد الله بن سلام رضى الله عنه بلغه مقدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فأتاه يسأله عن أشياء، فلما أجابه النبى صلى الله عليه وسلم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، قال : يارسول الله : إن اليهود قوم بهت [٣] فاسألهم عنى قبل أن يعلموا بإسلامى .. فجاءت اليهود فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أى رجل عبد الله

١- تهذيب سيرة ابن هشام ص ٣٦. ٢- دراسة فى السيرة د/ عماد الدين خليل ص ٣٢٤.

٣- بهت / جمع بهوت: وهو الذى يقذف بالباطل.

ابن سلام [١] فيكم ؟ قالوا خيرنا وابن خيرنا، وأفضلنا وابن أفضلنا .. فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك .. فأعاد عليهم فقالوا مثل ذلك، فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، فقالوا : شرنا وابن شرنا، وانتقصوه . قال : هذا كنت أخاف يارسول الله [٢].

وفى هذا قال الله عز وجل : "قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لايهدى القوم الظالمين" [٣].

ومن هنا نعلم أن اليهود كانوا يبيتون النية للانقضاض على الإسلام وأهله بعد أن اتضح لهم أن طبيعة الدعوة الإسلامية عالمية وأن نبيها صلى الله عليه وسلم ليس منهم ولكنه من العرب، وأن قيام دولتهم فى المنطقة التى سيطر عليها اليهود ماديا وعلميا يهدد مصالحهم ونشاطاتهم المختلفة.

خامسا : الفتنة والوقيعة : لذلك بدأ اليهود يتعنتون فى مواجهة النبى صلى الله عليه وسلم ويرمون الأنصار بقوارض الكلم ويشجعون فئة من الناس على الخداع والنفاق وبدأوا يوقعون بين المهاجرين والأنصار وبين الأوس والخزرج وقاموا بفتنة الناس عن دينهم وصد مَنْ يريد الإسلام عنه فمن ذلك :

١-عبد الله بن سلام: أحد أحبار اليهود وعلمائهم الضالعين،وكان اسمه الحصين فلما أسلم سماه النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله وكنيته أبو يوسف، وكان حليفا لبنى الخزرج وهو من بنى قينقاع توفى سنه٤٣ هـ وقد سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن ثلاثة أشياء قبل أن يعلن إسلامه، وهى : أشراط الساعة، وأول طعام أهل الجنة والوراثة وقد جاءت إجابة النبى صلى الله عليه وسلم مطابقة لما يعرفه عبد الله بن سلام من التوراه فعلم أنه رسول الله وقال: أشهد أنك رسول الله وأعلن إسلامه.

٢- فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر جـ٨ ص ١٦٥.

٣- سورة الأحقاف الآية(١٠) وانظر فى تفسيرها فتح القدير جـ٥ ص ١٦، ١٧.

أنه لما أوحى الله عز وجل إلى نبيه بتحويل القبلة إلى الكعبة من بيت المقدس أنكروا ذلك وحاولوا فتنة النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه بقولهم أنهم سيتبعونه إن رجع إلى قبلته الأولى.

ويوما بعد يوم اشتد النفور بين الطرفين وكثرت الخصومات بينهم وبدأت الكراهية والبغضاء تأخذ شكلا فنزل القرآن الكريم ينهى عن الاختلاط بهم واتخاذ بطانة منهم "ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفى صدروهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون .. ها أنتم أولاء تحبونهم ولايحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله، وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ .. قل موتوا بغيظكم .. " [١].

من هذا العرض يتضح لنا أن العلاقات فى هذه المرحلة السلمية كانت تعتمد على ماأرساه الإسلام من مبادئ الأخوة والوفاء والعفو والتسامح وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين قد سعوا إلى تطبيق تلك المبادئ فى معاملتهم مع اليهود. أما اليهود فقد قابلوا ذلك بالحقد والعداوة وعبروا عن ذلك بسلوكيات عديدة : فهم مرة يحاولون الاعتداء على الرسول صلى الله عليه وسلم [٢]، ومرة يجادلونه ويحاجونه[٣]، ومرة يعاهدونه ويضمرون له ولأهله الشر والكراهية [٤]، ومرة يعلنون عن ذلك ويوقعون بين المسلمين ويثيرون الفتن بينهم [٥] رغبة فى إضعافهم وتقليم شوكتهم حتى تبقى السيادة لليهود. ولكن القرآن الكريم تصدى لهم وفضح أمورهم وحذر المسلمين من ولايتهم واتخاذ بطانة منهم ونورد فى ذلك ماقاله الشيخ محمد أبو زهرة : "عقد النبى صلى الله عليه وسلم حلفا مع اليهود جعل فيه : له مالهم وعليه ماعليهم، وتعاهد معهم على البر والتقوى لاعلى التعاون على الإثم، وأنهم فى أحيائهم

١- سورة آل عمران الأيات ١١٨/١١٩.
٢- كما حدث من بنى النضير وفى فتح خيبر.
٣- كما حدث فى موضوع تحويل القبلة.
٤- كما حدث مع بنى قريظة.
٥- خاتم النبيين ص ٧٨٢ مرجع سابق.

متعاونون على دفع الإثم وعقل الجانى الذى تجب عليه الدية، وفى الجملة أعطاهم الحرية والحماية وعقد معهم جماعة وأحياء متفرقة عقدا ملزما، ولكن الحسد كان يسكن قلوبهم من أن الرسول الذى بعث كانوا يتمنون أن يكون من ولد إسحاق لامن ولد اسماعيل، وقد كانوا يعرفون أن نبيا سيبعث، فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به حسدا من عند أنفسهم، وكلما استيقنوا أنه النبى المبشر به فى التوراة ازدادوا ضيقا وغضبا وكفرا، وكلما وجدوا آيات النبوة زادتهم طغيانا وضلالا وعتوا وفسادا فى الأرض، وكأنهم وحدهم سلالة قابيل الذى قتل أخاه .... وقد ثبت أكثر اليهود على اعتقادهم وجاهدوا بالبقاء عليه والاعتراض الدينى على النبى صلى الله عليه وسلم ولكنهم نافقوا فى أنهم لم يخلصوا فى العهد الذى عاهدهم عليه النبى صلى الله عليه وسلم بل كانوا يخفون الخيانة بالمسلمين الدوائر ويكاتبون أعداء النبى صلى الله عليه وسلم ويحرضونهم عليه. ويسرفون على أنفسهم فينافقون المشركين، ويقولون إن ماهم عليه من شرك خير مما يدعو إليه النبى صلى الله عليه وسلم من التوحيد [١] ..

وقال فى موضع آخر عن المنافقين واليهود : "وكانوا هم والذين بقوا على يهوديتهم من يهود أشد الناس أذى للنبى وأصحابه، فالمنافقون كانوا يبثون فى المسلمين روح التردد والهزيمة وفى المسلمين سماعون لهم كما قال الله تعالى : "ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين.. لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين" لقد ابتغوا الفتنة وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون" [٢].

١- خاتم النبيين ص ٧٨٢ مرجع سابق.

٢- سورة التوبة الآيات (٤٦، ٤٧، ٤٨).

واليهود من وراء المنافقين يتعاونون معهم، ويكيدون معهم، ويمكرون ويمكر الله تعالى بإفساد تدبيرهم، وكاد اليهود ليلقوا الشك فى قلوب المؤمنين، يظهرون الإيمان ثم يعلنون الردة ليشجعوا المسلمين على الردة وليكونوا لهم مثلا لمن يخرج من الإسلام بعد الدخول فيه كما قال الله تعالى : "وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا أخره لعلهم يرجعون" [١].

وهكذا كان الافساد واليهود .. ينافقون .. ويدعون الوثنيين إلى النفاق، ويبثون بنفاقهم روح الفرقة بين المسلمين ويستهزئون ويسخرون من أهل الإيمان، ويجعلون من أنفسهم مثلا لمن يخرج عن الإسلام فيظهرون الإسلام ثم يخرجون ليكونوا مثلا سيئا للمسلمين لعلهم يرجعون [٢]. وهكذا نرى أن العلاقات ليست متوازنة مما جعل الأمور تتطور كما سنرى بعد فى انتقال العلاقات من السلم إلى الحرب.

ثانيا : فى الحرب : الاسباب .. والنتائج :

لقد أرسى الإسلام مبادئ العلاقات وترجمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إعلانها فى شكل بنود معاهدة لليهود .. والتزم النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون بتطبيقها دون الإخلال بشئ منها .. ولكن اليهود كانوا على نقيضها بسبب الحقد الذى دفعهم لإثارة الفتن والقلاقل .. وحبك المؤامرات ضد الاسلام وأهله بل وصل بهم الأمر من الجرأة وإعلان التعاون مع أعداء المدينة وأهلها..

فكان لابد من وقفة فى التعامل بالمثل لمنع الضرر ودرء الخطر .. فاضطر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حرب أى فئة منهم تبدأ بالعدوان .. وتنقض العهد .. وتعلن العداء وهو كما نرى بعد :

١- سورة آل عمران الآية رقم(٧٢).

٢- خاتم النبيين ص ٧٨٦ مرجع سابق.

أولا : مع بنى قينقاع :

وهى إحدى قبائل اليهود الكبرى بالمدينة .. وكما أسلفنا كانوا يقيمون وسط المدينة .. ويشتغل معظمهم بالتجارة فى الذهب وصياغته ولهم سوق سمى باسمهم .. وقد دخلوا العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وكان المفروض أن يقف هؤلاء اليهود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حرية ضد الكفار فى غزوة بدر ولكنهم على العكس من ذلك .. أخذوا يروجون الشائعات ضد المسلمين، ويشنون حربا نفسية ضد الرسول صلى الله عليه وسلم .. ويمارسون التجسس على المسلمين لصالح المشركين، حيث نقلوا كافة المعلومات عن نوايا المسلمين وحركاتهم إلى قريش، كما أنهم على اتصال بهم وتلقوا رسالة من قريش تحرضهم فيها على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأظهروا للرسول صلى الله عليه وسلم الحسد والبغض بعد انتصاره على المشركين فى بدر .. وقالوا : لم يلق محمد من يحسن القتال، ولو لقينا لاقى عندنا قتالا لايشبه قتال أحد، بذلك أظهروا نقض العهد .. فجمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سوق بنى قينقاع وقال لهم : يامعشر اليهود : احذروا من الله عز وجل مثل مانزل بقريش من النقمة وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل، تجدون ذلك فى كتابكم وفى عهد الله إليكم، قالوا : "يامحمد إنك ترى إنا مثل قومك، لايغرنك أنك لقيت قوما لاعلم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس" (١).

وقال ابن اسحاق : حدثنى مولى ليزيد بن ثابت عن سعيد بن جبير وعن عكرمة عن ابن عباس قال : مانزلت هؤلاء الآيات إلا فيهم "قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد .. قد كان لكم آية فى فئتين التقتا .. فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين .. والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى

١- البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ ص ٤ ، انظر فتح القدير جـ١ ص ٣٢١.

ذلك لعبرة لأولى الأبصار" [١] فالذين كفروا هم اليهود .. والفئة التى تقاتل فى سبيل الله محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه .. والفئة الكافرة المشركون.

قال ابن إسحاق : وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة أن بنى قينقاع كانوا أول يهود نقضوا العهد وحاربوا فيما بين بدر وأحد [٢].

وقال ابن هشام : كان أمر بنى قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب [٣] لها فباعته بسوق بنى قينقاع وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهوديا وشددت اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع [٤].

أسباب المواجهة والغزو :

مما سبق عرضه يتضح أن الأسباب التى دعت إلى مواجهة اليهود وغزوهم :

أن اليهود كانوا مشعلى الفتنة ومؤججى نارها .. فلم يقاتلوا المشركين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولم يهنئوهم بالنصر .. ولم يقفوا محايدين، بل قاموا يبكون الكفار .. ويهجون المسلمين ويشنون الحرب النفسية عليهم .. ولم يعتبروا بما حدث للمشركين .. ولم يحافظوا على عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وانتهكوا حرمة سيدة من سيدات العرب من الأنصار .. وقتلوا المسلم الذى دافع عنها.

١- سورة آل عمران الآيتان ١٢ ، ١٣ وانظر عون البارى جـ٦ ص ٢٣٤.

٢- البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ ص ٤.

٣- جلب : مايباع.

٤- تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٧١.

سقطت الأقنعة الزائفة وأصبح العداء سافرا .. وتحصن يهود بنى قينقاع بحصونهم سار إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى منتصف شوال من السنة الثانية من الهجرة يحمل لواءه عمه حمزه بن عبد المطلب وخلف على المدينة أبا بشير بن المنذر.

المواجهة (الغزوة) :

حاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى قينقاع فى حصونهم خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكمة صلى الله عليه وسلم الذى قضى بإجلائهم دون أن ينزل بهم أى عقوبة فخرجوا إلى أذرعات [١] وأشرف على إجلائهم عبادة بن الصامت، ولم يحل عليهم الحول حتى هلكوا [٢].

ويروى ابن كثير أن عبد الله بن أبى بن سلول قام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمكنه الله عز وجل من بنى قينقاع فقال : يامحمد أحسن فى موالىّ وكانوا حلفاء الخزرج، قال فأبطأ عليه فأدخل يده فى جيب درع النبى صلى الله عليه وسلم، قال ابن هشام وكان يقال لها ذات الفضول، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسلنى، وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رأوا لوجهه طللا [٣]، ثم قال ويحك أرسلنى. قال : لا والله لاأرسلك حتى تحسن فى موالىّ أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة، إنى والله امرؤ أخشى الدوائر، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم لك [٤].

هكذا تتكشف سوء نوايا اليهود من بنى قينقاع وعداوتهم للإسلام والمسلمين مع تحذير رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ثم عفوه بعد أن أمكنه الله عز وجل منهم .

١- أذرعات : بلدة بالشام.

٢- خاتم النبيين ص ٨١٤ مرجع سابق، نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين/ محمد الخضرى ص ١٢٨.

٣- طللا : أى ندى.

٤- البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ ص٥، والحاسر الذى لادرع له، والدارع الذى يلبس الدرع.

ونبرأ من حلفهم عبادة بن الصامت أحد رؤساء الخزرج .. وتشبث بالحلف عبد الله بن أبي وقد قال ابن اسحاق في هذا : حدثني أبي عن عبادة بن الوليد عن عبادة بن الصامت قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من بني عوف له حلفهم مثل الذي لهم من عبد الله بن أبي فخلعهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وقال: يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم، قال: وفيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات:« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء....بعضهم أولياء بعض..ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين.. فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة.. فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين»[١].

ويقول الشيخ أبو زهرة:« أخذ بنو قينقاع من قبل ما حدث مع المرأة..وما كان من تهديد..يتطاولون على المسلمين بالسب والأذى والتحامل وعدم صدق لسانهم عن المسلمين والإسلام..والنبي صلى الله عليه وسلم يصابرهم ويوفي بعهدهم حتى كان منهم القتل.. وإن أمر بني قينقاع قد انتهى بإجلائهم وطهرت المدينة من أرجاسهم..وما كان ذلك اعتداء من النبي صلى الله عليه وسلم بل لرد اعتداءاتهم ولنقضهم للعهد..ولأنهم صاروا جيران سوء يحق إجلاؤهم ليسلم الناس من فسادهم»[٢].

النتائج والثمار :

بهذه الغزوه

١- استراح الإسلام والمسلمون والمدينة من واحدة من قبائل اليهود الثلاث.

٢- ازدات وحدة المدينة تماسكا وازداد اليهود ضعفا.

١-سورة المائدة الأيتان ٥١-٥٢. وانظر بيان سبب النزول فتح القدير جـ٢ ص ٥٢.

٢- خاتم النبيين مرجع سابق ص ٨١٤-٨١٦.

٣- امتنع اليهود عن الجدل الدينى لما وقع فى نفسهم من الوهن والرعب لإجلاء يهود بنى قينقاع.

٤- كفوا عن رمى المسلمين بقوارض الكلم كما كان يتبع قبل ذلك.

٥- أصبح للمسلمين هيبة فى قلوب البطون العربية التى لم تكن قد دخلت فى الإسلام.

٦- انفسح المجال أمام النبى صلى الله عليه وسلم لنشر دعوته [١].

ثانيا: مقتل كعب بن الأشرف :-

بعد الموقف من يهود بنى قينقاع، كان ولابد من وقفه أخرى مع زعيم من زعماء اليهود عامة ويهود بنى النضير خاصة، وقد كان يحمل من الحقد والعداوة والبغضاء لرسول الله عليه وسلم والمسلمين مثل ما حملت قبيلة بأسرها، وأعلن عن ذلك وأكده بممارسات فعلية ومواقف علنية، فدارت عليه الدوائر...وجنى ثمار حقده...وأراق رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه، وعلى الباغى تدور الدوائر... وقد رويت فى قتله عدة روايات منها هذه الرواية التى تبين لنا أسباب قتله: قال محمد بن اسحاق: كان من حديث كعب بن الأشرف-وكان رجلا من طئ وأحد بنى نبهان وأمه من بنى النضير-أنه لما بلغه الخبر عن مقتل أهل بدر حين قدم زيد بن حارثه وعبد الله بن رواحه قال:« والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها » فلما تيقن عدو الله الخبر خرج إلى مكة، فنزل على المطلب بن وداعه بن ضبيرة السهمى

وعنده عاتكه بنت أبى العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف... فأنزلته وأكرمته وجعل يحرض على قتال رسول الله عليه وسلم وينشد الأشعار ويندب من قتل من المشركين يوم بدر فذكر ابن اسحاق قصيدته التى أولها :

طحنت رحى بدر لمهلك أهله..... ولمثل بدر تستهل وتدمع

١- دراسة فى السيرة د/ عماد الدين خليل ص ٣٣٦ نقلا عن تاريخ اليهود د. ولفنسون ص ١٣١.وانظر تاريخ الطبرى٢ ص٤٧٩-٤٨١، السيرة النبوية لابن هشام جـ٢ص٤٧-٤٩.

وذكر جوابها من حسان بن ثابت رضى الله عنه،ثم عاد إلى المدينة فجعل يشبب بنساء المسلمين ويهجوا النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه، قال فى أم الفضيل بنت الحارث

إحدى بنى عامر جن الفؤاد بها... ولو تشاء شفت كعبا من السقم

لم أرشمسا بليل قبلها طلعت.... حتى تجلت لنا فى ليلة الظلم

« وتحول من أم الفضل إلى نساء مسلمات أخريات... مع هجائه للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه، قال موسى بن عقبة: وكان كعب بن الأشرف أحد بنى النضير أو منهم قد آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجاء وركب إلى قريش فاستغواهم، وقال له أبو سفيان وهو بمكة: أنا شدك أدينتا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ وأينا أهدى فى رأيك وأقرب إلى الحق؟: إنا نطعم الجزور الكوماء[1]... ونسقى اللبن على الماء....ونطعم ما هيت الشمال، فقال له كعب بن الأشرف: أنتم أهدى سبيلا. قال فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم:« ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا... أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا »[2]. قال موسى ومحمد بن إسحاق: وقدم كعب للمدينة يعلن بالعداوة ويحرض الناس على الحرب ولم يخرج من مكة حتى جمع أمرهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يشبب بنساء المسلمين.. قال ابن إسحاق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من لى بابن الأشراف؟ فقال له محمد ابن مسلمة أخو بنى عبد الأشهل: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله، قال: فافعل إن قدرت على ذلك، قال فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثا لا يأكل ولا يشرب إلا ما يعلق نفسه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له:

١- الكوماء : عظيمة السنام.

٢- سورة النساء الآيتان ٥١-٥٢.

لم تركت الطعام والشراب؟ فقال: يا رسول الله قلت لك قولا لا أدرى هل أفى لك به أم لا؟ قال: إنما عليك الجهد، قال: يا رسول الله: إنه لابد لنا أن نقول[١]، قال: فقولوا ما بدا لكم فأنتم فى حل من ذلك قال: فاجتمع فى قتله محمد بن مسلمه وسلكان بن سلامة بن وقش وهو أبو نائلة أحد بنى عبد الأشل، وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة وعباد بن بشربن وقش أحد بنى عبد الأشهل والحارث ابن أوس بن معاذ أحد بنى عبد الأشهل وأبو عيسى بن جبير أحد بنى حارثة قال: فقدموا بين أيديهم إلى عدو الله.. كعب سلكان بن سلامة أبا نائلة فجاءة فتحدث معه ساعة فتناشدا شعرا- وكان أبو نائلة يقول الشعر- ثم قال: ويحك يا ابن الأشرف إنى قد جئتك لحاجة أريد أن أذكرها لك فاكتم عنى، قال: كان قدوم هذا الرجل- يقصد محمداً- علينا بلاء.... عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة، وقطعت عنا حتى ضاع العيال... وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا، فقال كعب بن الأشرف: أما والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر يصير إلى ما أقول؛ فقال له سلكان: إنى قد أردت أن تبيعنا طعاما وترهنك ونوثق لك ونحسن فى ذلك، قال: ترهنونى أبناءكم؟ قال: لقد أردت أن تفضحنا، إن معى أصحاب على مثل رأيى، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن فى ذلك ونرهنك من الحلقة[٢] ما فيه وفاء، وأراد سلكان أن لا ينكر السلاح إذا جاءوا بها، فقال: إن فى الحلقة لوفاء، قال: فرجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم خبره وأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه، فاجتمعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن اسحاق: فحدثنى ثور بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس قال: مشى معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بقيع الغرقد ثم وجههم وقال:« انطلقوا على

١- يريد أنه لتحقيق هذا الغرض لابد أن نكذب، وقد بوب البخارى عليه« الكذب فى الحرب».

٢-الحلقة: السلاح.

اسم الله، اللهم أعنهم» ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته وهو فى ليلة مقمرة، فانطلقوا حتى انتهوا إلى حصنه، فهتف به أبو نائلة وكان حديث عهد بعرس فوثب فى ملحفته، فأخذت امرأته بناحيتها وقالت: أنت امرؤ محارب.. وإن أصحاب الحرب لا ينزلون فى هذه الساعة، قال: إنه أبو نائلة لو وجدنى نائما ماأيقظنى، فقالت: والله إنى لأعرف فى صوته الشر، قال: يقول لها كعب لو دعى الفتى لطعنة أجاب، فنزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه ثم قالوا: هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى إلى شعب العجوز فنتحدث به بقية ليلتنا هذه؟ قال: إن شئتم، فخرجوا فمشوا ساعة ثم إن أبا نائلة شام يده فى فود[1] رأسه ثم شديدة فقال: ما رأيت كالليلة طيبا أعطر قط، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن... ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها فأخذ بقوى رأسه ثم قال: اضربوا عدو الله؟ فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئا، قال محمد بن مسلمة فذكرت مغولا[2] فى سيفى فأخذته وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار قال: فوضعته فى ثنته ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته فوقع عدو الله..وقد أصيب الحارث بن أوس بجرح فى رجله أو فى رأسه أصابه بعض سيوفنا، قال: فخرجنا حتى سلكنا على بنى أميه بن زيد ثم على بنى قريظة ثم على بعاث حتى أسندنا فى حرة العريض وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث بن أوس ونزفه الدم فوقفنا له ساعة ثم أتانا يتبع آثارنا فاحتملناه فجئنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر الليل وهو قائم يصلى فسلمنا عليه فخرج إلينا فأخبرناه بقتل عدو الله.... وتفل رسول الله صلى الله عليه وسلم على جرح صاحبنا ورجعنا إلى أهلنا فأصبحنا وقد خافت يهود بوقعتنا بعدو الله فليس بها يهودى إلا وهو خائف على نفسه[3] وعن كعب

١- فورد رأسه : جانبه من جهة الأذن.

٢- المغول: نصل طويل (سكينا).

٣- البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ ص ٩، عون البارى بشرح صحيح البخارى جـ٦ ص ٢٣٧-٢٤٠.

بن الأشرف وجزائه يقول الشيخ محمد أبو زهرة:« هذه حال فردية ولكنها ذات صلة بسير الحروب بين أهل مكة المشركين والنبى صلى الله عليه وسلم وما كان يقوم به اليهود فى هذه المعارك آحادا وجماعات من تحريض للمشركين.. وتخذيل للمؤمنين وبث روح التردد والهزيمة فى أهل المدينة وإثارة الحروب فى مكة..«وكلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله تعالى، وكان كعب بن الأشرف يقوم فى ذلك بأعمال خطيرة تؤجج النيران ضد المؤمنين، ولم يدخل مع النبى صلى الله عليه وسلم فى عهد... ولم يقف منه ولا من المؤمنين موقف المسالمة أو يعتزل... بل أظهر العداوة وعمل تحت سلطانها [١]، ثم أخذ يعدد المواقف التى سبقت الإشارة إليها. ثم قال: هذا ما يفعله الرجل اليهودى المنطلق من كل العهود والمواثيق.. أيسكت النبى صلى الله عليه وسلم وهو المحارب الحذر الذى يهجم على مداخل الأذى قبل أن يلج منه العدو؟ أم يعلنها على قومه أو من ينتمى إليهم من بنى النضير؟ وأكثرهم لم ينالوا بمثل ما نال، ولا تزر وازرة وزر أخرى؟ والنبى صلى الله عليه وسلم لا يعلن الحرب إلا على من أعلنها ولما يعلنوها. أم يسكت ويترك الشر يستشرى ويحاكيه فى أفعاله بقية يهود؟ لا شك أن آخر الدواء الكى، إنه لا بد أن يجتث الداء من موضعه ولا يتركه حتى يفسد الجسم كله، ولا منجاة حينئذ، لم يبق إلا أن يقتل كعبا حسما لمادة الفساد[٢].

ماذا ترتب على قتل كعب بن الأشرف؟:

١- وكان فى مقتل كعب بن الأشرف تأديب لليهود وتخويف لهم.... فدب الرعب فى قلوبهم العنيدة.. وأسرعت الأفاعى إلى جحورها تختبئ فيها وأجدت العصا حين أعيت النصيحة... وبطل المقال.

١- خاتم النبيين مرجع سابق ص ٨١٨.

٢- المرجع السابق ص ٨٢٠.

٢- لزم اليهود حدودهم فلم يتجرأوا على المسلمين بأى سبب وظهر كأنهم لن يمالئوا على الله ورسوله مشركا بعد اليوم .

٣- دفعهم الفزع إلى مقابلة النبى صلى الله عليه وسلم حيث قالوا له: قد طرق صاحبنا الليلة وهو سيد من ساداتنا ، وقتل غيلة بلا جرم ولا حدث علمناه، فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه لو قر كما قر غيره ممن هو على مثل رأية ماأغتيل، ولكنه نال منا الأذى وهجانا بالشعر...ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان له السيف.

٤- عرض عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا القول أن يكتب بينهم كتابا ينتهون إلى مافيه...فأجابوه إلى ذلك حيث أصابهم الخوف والذل[١].

وبعد ذلك تفرغ الرسول صلى الله عليه وسلم- إلى حين- لمواجهة الأعراب المشركين[٢]

ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاسيا ولايظن به ذلك وهو الرءوف الرحيم... بل كان عادلا فى مجازاة كعب على إيذائه للنبى صلى الله عليه وسلم كما أسلفنا ويؤكد ذلك إجابة الرسول صلى الله عليه وسلم لهم« إنه لو قر مثل ما قر غيره ممن هو على رأيه ما اغتيل..

وفى هذا المعنى يقول الشيخ محمد أبو زهرة " ردا عليها" ولقد وجدنا من الغربيين من أثار زوبعة حول النبى صلى الله عليه وسلم وكيف يأمر بالقتل غيلة... وهذا يتنافى مع الرسالة الألهية كما يتنافى مع أصل القتل كما كان من عيسى عليه السلام الذى يروون عنه أنه قال :« من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر »

١- دراسة فى السيرة مرجعي سابق ص ٣٣٨.

٢- فقه السيرة الغزالى ص ٢٦٤.

ونقول فى الجواب عن ذلك: إن قمع أعداء الدعوة الدينية لايتنافى مع الرسالة ... فموسى عليه السلام وهو من أولى العزم من الرسل قد قتل بيده وقاتل ودعا بنى اسرائيل إلى القتال وما تنافى ذلك مع رسالته الإلهية التى نزلت بها التوراة وهى كتب العهد القديم المقدسة عند اليهود والنصارى معا، ويحسبون أن الرحمة النبوية تمنع القتل والقتال ونقول فى ذلك أن القتل المشروع يكون بباعث من الرحمة، فليست رحمة النبوة انفعالة رعناء تكون على موضع البرء والسقم، إنما رحمة النبوة تكون بالكافة، ومن الرحمة بالكافة أخذ المذنب بذنبه ومنع الفساد فى الأرض [١].

"كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف موقفا آخر مع "مخيريق" وهو يهودى أحد بنى ثعلبة بن االفيطون قال ابن إسحاق:" .... لما كان يوم أحد قال : يامعشر يهود : والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق. قالوا : إن اليوم يوم السبت. قال : لاسبت لكم. فأخذ سيفه وعدته وقال : إن أصبت فمالى لمحمد يصنع فيه ماشاء، ثم غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتل معه حتى قتل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا : "مخيريق خير يهود" قال السهيلى : فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أموال مخيريق - وكانت سبع حوائط - أوقافا بالمدينة لله. قال محمد بن كعب القرظى : "وكانت أول وقف بالمدينة" [٢].

فهذه شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمخيريق .. لأنه نطق بالحق .. وجاهد مع الحق .. ووقف أمواله فى سبيل الحق .. فرسول الله صلى الله عليه وسلم مع الحق حيثما كان.

ثالثا : يهود بنى النضير :

من قبائل اليهود الكبرى فى المدينة "بنو النضير" وقد كانوا فى أمان بمعاهدتهم

١- خاتم النبيين مرجع سابق ص ٨٢٢.

٢- البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ ص ٣٨.

مع النبى صلى الله عليه وسلم، وكان فى وسعهم أن يبقوا كذلك، ولكنهم لم يحافظوا على العهد مع رسول الله صلى الله علية وسلم ولم يعتبروا مما حدث لإخوانهم بنى قينقاع من جزاء نقض العهد بل استجابوا لنداء الحقد فى قلوبهم والخيانة تجرى فى عروقهم وقاموا بمؤامرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم إليك بيانها :

قال ابن إسحاق : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى النضير يستعينهم فى دية ذينك القتيلين من بنى عامر اللذين قتلهما عمر بن أمية [١] للعهد الذى كان صلى الله عليه وسلم أعطاهما، وكان بين بنى النضير وبين بنى عامر عهد وحلف فلما أتاهم صلى الله عليه وسلم قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت .. ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله [٢] - ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة ويريحنا منه.

فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب فقال : أنا لذلك، فصعد ليلقى على النبى صلى الله عليه وسلم صخرة . فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما أراد القوم .. فقام وخرج راجعا إلى المدينة فلما استلبث [٣] النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا فى طلبه فلقوا رجلا مقبلا من المدينة فسألوه عنه فقال : رأيته داخلا المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهوا إليه فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به.

قال الواقدى : فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة يأمرهم

١- وقد قتلها يريد أن يصيب بذلك ثأرا من بنى عامر فيما أصابوا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يوم بئر معونة.

٢- أى لن تجدوا فرصة خيرا من هذه للنيل منه.

٣- أى وجدوا أنه طال الليث: تأخر وكان معه أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلى.

بالخروج من جواره وبلده فبعث إليهم أهل النفاق يثبتونهم ويحرضونهم على المقام ويعدونهم النصر، فقويت عند نفوسهم .. وبعثوا إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم لايخرجون ونابذوه بنقض العهود. فعند ذلك .. قال ابن اسحاق : وأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم .. قال ابن هشام : واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وذلك فى شهر ربيع الأول .. قال ابن إسحاق : فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بهم فحاصرهم ست ليال، ونزل تحريم الخمر حينئذ، وتحصنوا فى الحصون، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخيل والتحريق فيها [١]، فنادوه يامحمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها ؟ قال : وقد كان رهط من بنى عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبى وديعة ومالك وسويد وداعس قد بعثوا إلى بنى النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم .. إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم جرجنا معكم، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا وقذف الله فى قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ماحملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة [٢].

وقال العوفى عن ابن عباس : أعطى كل ثلاثة بعيرا يتعقبونه (يتبادلون الركوب عليه واحدا عقب الآخر)) ووسقا، قال ابن اسحاق : ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان وهما يامين بن عمير بن كعب بن عم عمرو بن جحاش، وأبو سعد بن وهب فأحرزوا أموالهما. قال ابن إسحاق : وحدثنى بعض آل يامين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليامين : ألم تر ما لقيت من ابن عمك وماهم به من شأنى ؟ .. فجعل يامين لرجل جعلا على أن يقتل عمرو بن حجاش فقتله لعنه الله.

١- سنن ابن ماجة باب التحريق بأرض العدو حديث رقم ٢٨٤٤.

٢- الحلقة : السلاح.

قال ابن اسحاق : فأنزل الله فيهم سورة الحشر بكمالها يذكر فيها ما أصابهم به من نقمته وما سلط عليهم به رسوله، وما عمل به فيهم [١]. فمن ذلك قوله سبحانه : "هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا ياأولى الأبصار، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار... ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله فإن الله شديد العقاب.... ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ولينخزى الفاسقين»[٢].

وقوله عز وجل فى شأن المنافقين: «ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون... لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم... ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون»[٣].

الخلاصة ، أو النتائج:

من هذا العرض يتضح أن يهود بنى النضير هم الذين بدأ وانقض العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك تآمروا على قتله وهو فى ضيافتهم يريد الأستعانة بهم.... ولقد كان ذلك الجرم كفيلا بحربهم والقضاء عليهم... ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الرءوف الرحيم يبعث إليهم ينذرهم بالجلاء فلما لم يفعلوا وتحصنوا بحصونهم واعتمدوا على معونة المنافقين ووعودهم.. حاصرهم رسول الله صلى

١- البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ ص ٧٦-٧٨، وانظر بن هشام جـ٣ ٢٠٣-٢٠٦ والسيرة النبوية للندوى ص ١٩٥، وخاتم النبيين ص ٨٩٠-٨٩٢، طبقات ابن سعد جـ٢ ص ٤٠١-٤٠٢.

٢-سورة الحشر الآيات (٢-٥).

٣- سورة الحشر الآيات (١١-١٢).